

النسق الأيديولوجي في رواية حلم على الضفاف لحسية موساوي
The ideological pattern in the novel A Dream on the Banks by Hassiba

Moussaoui

بودريالة يسمين¹ / وهيبه جراح²
Bouderbala yassamine¹ / wahiba djerrah²

مخبر التراث الأدبي الجزائري الرسمي والهامشي / مخبر تحليل الخطاب
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوصوف/ميلة (الجزائر)

Centre universitaire Abdelhafid Boussouf- Mila (Algeria)

y.bouderbala@centre-univ-mila.dz¹ / w.djerrah@centre-univ-mila.dz²

تاريخ النشر: 2024/12/02	تاريخ القبول: 2024/11/02	تاريخ الإرسال: 2024/09/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مختلف الأنساق الإيديولوجية الظاهرة والمضمرة المكونة لعالم رواية حلم على الضفاف في محاولة للكشف عن خصوصيات البعد الأيديولوجي للرواية؛ خاصة وأنها جسدت فكرة الصراع الإيديولوجي بين الحضارتين الشرقية والغربية (الجزائر - فرنسا) حيث عمدت الكاتبة إلى محاولة تقريب وجهات النظر بين العالمين المتضادين المتصارعين تاريخيا أولا، ثم ثقافيا اجتماعيا، دينيا ثانيا؛ من أجل إرساء مبادئ التواصل والتفاعل أحيانا والقطيعة التامة في أحيان أخرى.
الكلمات المفتاح : نسق؛ أيديولوجيا؛ نسق أيديولوجي؛ تفاعل وصراع؛ حلم على الضفاف

Abstract :

This study aims to elucidate the various ideological frameworks, both overt and covert, that shape the world of the novel *Dreams on the Shores*. It seeks to explore the distinctive features of the novel's ideological dimension, particularly as it embodies the ideological conflict between the Eastern and Western civilizations (Algeria and France). The author attempts to reconcile the perspectives of these historically antagonistic worlds, first in terms of their

* بودريالة يسمين : y.bouderbala@centre-univ-mila.dz

historical conflict, and second, culturally, socially, and religiously. The study investigates the establishment of principles of dialogue and interaction in some instances, and complete estrangement in others.

Keywords: Pattern; Ideology; Ideological Pattern; Interaction and Conflict; Dreams on the banks



مقدمة:

تأثرت الكتابة الأدبية بتيار الحداثة، بمختلف توجهاته وحشياته، وأصبحت تجسد لنا واقع المجتمعات بكل تفاصيله، متجاوزة بذلك حدود الكتابة الكلاسيكية؛ من أجل التحرر من كل القيود المفروضة على العمل الأدبي والروائيون العرب أنفسهم عمدوا إلى فرض التغيير والبحث عن سبل تعبيرية جديدة للحديث عن واقع جديد أملته التغيرات الطارئة على العالم كلا، وكذلك فعل الأدباء الجزائريون، إذ لم يخرجوا عن هذه القاعدة. خاصة وأن المتتبع للشأن الجزائري يعلم بأن الجزائر عاشت خلال القرنين الماضيين حالة تاريخية استثنائية ممثلة في الاحتلال الفرنسي مدة تجاوزت المئة والثلاثين سنة، انهارت بفعلها مختلف المنظومات التي كانت تحكم المجتمع، التي تشكل كينونته، لتخلق لنا نظامًا مغايرًا تمامًا لما عهده الفرد الجزائري؛ وهو ما خلق في نفسه هاجسًا تمت تغذيته بفعل الاحتكاك بالثقافة الغربية الفرنسية فأضحى صدامًا وصراعًا أيديولوجيًا انعكس فيما بعد على مختلف النتائج الأدبية الجزائرية. إذ أصبح هذا العامل التاريخي المحرك الأساسي للأعمال الأدبية في الجزائر، من هنا برز النسق الأيديولوجي قضية مشكلة للنص الروائي. بالتالي كان الصراع الأيديولوجي في الأعمال الروائية الجزائرية بمنزلة مواجهة حتمية بين وعي زائف وآخر حقيقي ما جعله من أبرز القضايا التي تطرح نفسها وبقوة على الساحة الفكرية نتيجة تلاحق وصراع الحضارات والثقافات خاصة في العقد الأخير من القرن العشرين.

وارتأينا في هذه الدراسة الغوص في غمار الكتابة النسوية باعتماد رواية "حلم على الضفاف" للكاتبة "حسية موساوي" عينة ننطلق منها لدراسة قضية النسق الأيديولوجي، خاصة وأن النص الروائي وبفعل خاصيته الحوارية فهو يتوضع مقابلًا للأيديولوجيا؛ لأن الرواية جنس أدبي يستمد مرجعيته من الواقع الاجتماعي المعيش بمختلف أنظمتها، وبذلك سنشهد ثراء نسقيًا من جهة وتعالقًا فكريًا وإيديولوجيًا، حتى حضاريا من جهة أخرى وهو ما لمسناه في الرواية المختارة؛ كونها مبنية أساسًا على فكرة النسق الأيديولوجي وعلاقته المختلفة من شخصية لأخرى، وكذا تعدد الأمكنة المشكلة لعالم الشخصيات خلق إيديولوجيات قد

تتلاقح، تتصادم، حتى تتصارع. من هنا كان سؤال الدراسة يتمحور في: خصوصيات البعد الأيديولوجي في رواية حلم على الضفاف؟ وكيف يتم عزل إيديولوجية النص عن الإيديولوجيات في النص؟ وما هي أبرز الأنساق الإيديولوجية المشكلة لعالم الرواية والشخصيات؟

وتلمس هذه الدراسة الوقوف على الأنساق الأيديولوجية المشكلة لعالم رواية حلم على الضفاف ونظرة شخصيات النص إليها ومدى تفاعلها مع أيديولوجية الغير أولا وتأثيرها في الآخر ثانيا. وعليه جاء تقسيم الورقة البحثية إلى محورين أساسيين كالآتي:

أولا: قراءة في البنية المفاهيمية لمصطلح "نسق أيديولوجي" بتفكيكه لمفهومين رئيسيين "نسق" و"أيديولوجيا" لغرض الإحاطة بمختلف جوانبها لفهم المصطلح الرئيس بحكم تماهيه مع مجالات معرفة أخرى. **ثانيا:** الصراع الأيديولوجي في رواية "حلم على الضفاف"؛ فالرواية تنضوي على أنساق إيديولوجية متعددة ومختلفة باختلاف الرؤى الفكرية والعقائدية لشخصيات الرواية ما خلق داخل العالم الروائي حالة من الصدام والصراع تارة والتفاعل والتلاقح في أحيان أخرى.

وقد تم اعتماد آليات النقد الثقافي مقارنة منهجية للبحث في تحليل المدونة الروائية خاصة وأن النسق أحد أبرز مباحث النقد الثقافي. أما عن الهدف من الدراسة فهو معرفة مدى تفاعل المنتج الإبداعي الجزائري مع الآخر من جهة وقدرة النص الجزائري على الكشف عن إيديولوجيات عدة تتشابك لتظهر لنا خبايا المجتمع الجزائري من جهة مقابلة. وقد تنوعت مصادر الدراسة بطبيعة الحال من كتب ومقالات منشورة.

2. النسق الأيديولوجي: قراءة في البنية المفاهيمية:

كما هو واضح يقع مصطلح الدراسة في شقين "نسق" و"أيديولوجيا"؛ النسق بفعل تماهيه أضحي مجال البحث فيه مجالا زئبقيا لصعوبة حصره في تخصص معين، فهناك عدة حقول تتداول المصطلح: حقل اللغة، النقد، المجتمع، الأيديولوجيا... بالتالي مصطلحا، لديه قدرة على الانزياح لشموليته وأهميته الدلالية. من هنا ورد في المعجم المنجد: «نسق الدر ونحوه: نظمه والكلام: عطف بعضه على بعض ورتبه... حروف النسق: حروف العطف. يقال "هذا نسق على هذا" أي معطوف عليه. النسق: ما كان على طريقة نظام واحد من كل شيء»⁽¹⁾ ونلاحظ أن المفهوم اللغوي يحيلنا إلى دلالة النظام والترتيب المتسلسل للأشياء فالنسقية إذن هي التنظيم والترابط والتماسك والتسلسل وتتابع الأفكار وانتظامها في نسيج نصي موحد موضوعيا وعضوياً أي ربط للعلاقات.

أما من الناحية الاصطلاحية نأخذ ما ذهب إليه "تالكوت بارسونز" باعتباره أحد أوائل المهتمين بالمصطلح في ميدان علم الاجتماع، إذ يعرف النسق فيقول: «بأنه نظام ينطوي على أفراد فاعلين تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق، وعلى نحو يغدو

معه مفهوم النسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي⁽²⁾ فقد حافظ على السياق ذاته ولا يزال يحمل مدلول التنظيم أو النظام الواحد المتناسك. أما "سوسير" فقد استخدم مصطلح البنية مرادفًا لمصطلح النسق في بحوثه اللسانية البنيوية وهو ما أوقع الباحثين والدارسين في مأزق مفاهيمي هل النسق أم البنية؟ أم أن هناك تباين في المصطلحين؟ إذ اختلف هؤلاء حول القضية لترجح الكفة في نهاية المطاف إلى اعتبار النسق أعم وأشمل من البنية ومن ذلك قول "الزواوي بغورة": «كل نسق نظري له بنية منطقية محددة، ومعنى هذا أن الأنساق تتألف من عناصر وعلاقات وبنى، فالبنية أحد المكونات الأساسية للنسق»⁽³⁾. بالتالي تعد النظرية البنيوية- على اختلاف توجهاتها- أولى النظريات النقدية اهتمامًا بالنسق مصطلحًا تقديًا لتليه الاهتمامات فيما بعد. أما "ميشال فوكو" فيقول النسق: «علاقات، تستمر وتحول، بمعزل عن الأشياء التي تربط بينها»⁽⁴⁾ بمعنى أن الأنساق لها سمة التغير والاستمرارية وهو ما يفسر وجود عدة أنساق في النسق الواحد فهذه الأخيرة لا يمكن أن تكون ذات علاقات ثابتة إنما تتحول بغض النظر عن الروابط التي تحكمها. بالرغم من التعدد الواضح في المفاهيم والاصطلاحات، إلا أن هناك اتفاق واحد في سمات النسق وخصائصه قد أجملها الباحث "جميل حمداوي" في العناصر الآتية:

- خاصية تعدد الأنساق: فالخطاب أو الظاهرة الثقافية نسق مركز يتفرع إلى أنساق فرعية متعددة.
- خاصية الديناميكية: ليس النسق نظامًا أحاديًا مغلقًا ثابتًا بل هو نسق ديناميكي وظيفي يتحرك متغير بتغير السياقات والمرجعيات المحيطة به.
- خاصية التهجين: أي إن التداخل بين مختلف الأجناس الأدبية انصهارًا وتفاعلاً يؤدي إلى ظهور نسق يتسم بالازدواجية والتعددية.
- خاصية الانفتاح: إذ يتجاوز النسق سمة الانغلاق الأحادي نحو سمة الانفتاح على الذات والغير والإنسان والتاريخ والمجتمع...
- خاصية العلائقية: فالنسق يخضع لمنطق العلاقات والتفاعلات والتبادلات سواء كان ذلك على الصعيد الداخلي للنسق أم على الصعيد الخارجي⁽⁵⁾.

فالمتمثل يجد أن الأنساق في النص الإبداعي الواحد غالبًا ما تتعدد فتتفرع عن النسق الرئيس أنساقًا أخرى تحمل نفس صفات الأول أو تكون قريبة منه فلا تخرج عنه، وعليه يكون النسق بمفهوم عام بحت تعبير عن نظام متكامل ومترايط من بنيات أو بنية نظرية محضة يكونها الفكر حول موضوع ما، وهو إلى ذلك مجموعة من القواعد والمبادئ والقوانين العامة المجردة التي تتصف بالترايط، وفي المقابل تتحكم في إنتاجه مجموعة من الظروف الداخلية المتعلقة بالفرد وأخرى خارجية تتعلق بالمجتمع. وبطبيعة الحال فالنسق بهذا المعنى أنواع: نسق ديني، نسق علمي، نسق اجتماعي، ونسق أيديولوجي...

أما مصطلح "أيديولوجيا" هو من أكثر المصطلحات تشعبا واستعمالاً من حيث المفهوم، وذلك لكثافة الدلالات التي يحملها وهي ناتجة من اختلاف زوايا النظر وتعددتها بين الباحثين، لذا فقد ظل غامضاً لا يستقر على حال، وبالعودة إلى المصادر التي تناولته نجد أن الأيديولوجيا مصطلحاً، ترجع جذوره إلى اللغات اللاتينية وهو مكون من مقطعين أصلهما إغريقي فأضحت تعني حرفياً علم الأفكار أو علم التصور أو علم العقيدة أو علم الآراء وذلك حسب توجه الباحث وتصوره غير أن كثيراً من النقاد اتفقوا على اعتماد "علم الأفكار" تعريفاً لغويًا له ويعد الفيلسوف "دوستوت دو تراسي" *Destutt de Tracy* في كتابه مشروع لعناصر الأيديولوجية الصادر سنة 1796 عن المعهد الفرنسي أول المهتمين بالمصطلح خاصة وأنه ظهر في عصر شهد تغيرات شتى، فكانت الأيديولوجيا اسماً جديداً لتلك الفلسفة التي هيأت للثورة، فأضحت دلالاته تحيلنا إلى علم الأفكار؛ أي العلم الذي يبحث في صفات الأفكار وقوانينها وسماتها ولا سيما أصولها⁽⁶⁾ فالدلالة اللغوية الغربية للأيديولوجيا تحيلنا إلى علم الأفكار، علم الآراء حتى علم التصورات قبل أن يتغير المفهوم ويكتسب سمات دلالية جديدة على المستوى الاصطلاحي على يد كثير من الباحثين والأيديولوجيين — إن صح القول — والمهتمين بالمصطلح. أما عربياً فلا يوجد بديل لغوي للمصطلح، لأن صعوبة تحديد مفهومه أدت إلى صعوبة تعريبه أو العجز عن ترجمته بكيفية مرضية. من هنا جاءت محاولات عدة من قبل النقاد العرب لإدخال المصطلح إلى قالب من قوالب الصرف العربي على رأسهم "عبد الله العروي" الذي اعتمد بديلاً لها مسمى "أدلوجة" "على وزن أفعولة فنقول: «الحزب الفلاني يحمل أدلوجة ونعني بها مجموع القيم والأخلاق والأهداف التي ينوي تحقيقها، ندرس أدلوجة عصر النهضة ونعني بها النظرة التي كان يلقيها رجل النهضة إلى الكون والمجتمع والفرد»"⁽⁷⁾ على هذا الأساس حاول "العروي" خلق جو عربي للمصطلح وإن كان هذا الأخير قد قوبل بنوع من الاستهجان لنقل النطق ما أدى بأغلبية الباحثين إلى اعتماد مصطلح "الأيديولوجيا" دون اللجوء إلى أي أبدال عربية. أما من الناحية الاصطلاحية فتعدد المفاهيم أمر وارد كل حسب توجهه ونأخذ ما ذهب إليه الكاتب "عبد الله العروي" حين قسم الأيديولوجيا إلى أربعة أنماط: نمط سياسي، نمط اجتماعي، نمط معرفي ونمط مشترك بين الأنماط الأخرى⁽⁸⁾ من هذا المنطلق تستعمل الأيديولوجيا حسب المفهوم الأول في ميدان المناظرة السياسية وبذلك تكتسي صبغة سلبية أو إيجابية حسب هوية المستعمل، أما النمط الثاني فمجاله المجتمع في أدواره التاريخية، وكان مجال الثالث الكائن الإنساني في محيطه الطبيعي في حين ظل الرابع مشتركاً بين الأنماط سالف الذكر؛ فعند دراسة تأثير أيديولوجيا على الفكر فإننا نبحث في حدوده الموضوعية الثلاث: الانتماء إلى منظومة سياسية، الدور التاريخي الذي يمر به المجتمع ككل، الإنسان في محيطه الطبيعي⁽⁹⁾ إذن هناك ثلاث مجالات أساسية اهتمت بالأيديولوجيا مصطلحاً وافداً على الساحة المعرفية والثقافية على حد السواء، وهو ما

أدى إلى عدم الاتفاق الحاصل حوله فلكل خلفيته ولكل وجهة نظره وتحليله للقضايا. أما وفق رؤية أعمق فالإيديولوجيا فلسفة مجتمع تعالج قضايا عصر من العصور.

أما على المستوى الغربي؛ فإن أبرز وجهات نظر الباحثين في المفهوم الاصطلاحي للإيديولوجيا كانت كالآتي: "كارل ماركس" يقول أنها: «النتاج الفكري للطبقة الاجتماعية المسيطرة، فالإيديولوجيا يمكن أن تشير إلى الفلسفة الاجتماعية الموجهة لجماعة معينة داخل المجتمع أو طبقة أو حزب سياسي»⁽¹⁰⁾ والملاحظ هنا أن المجتمع جزء مهم من مفهوم الإيديولوجيا لا يكتمل بدونه بعده العرف المسيطر على الأفق الذهني لفرد ما. كما يقول "كارل منهايم" في كتابه "الإيديولوجية والطوبائية" المنشور سنة 1936: «أنها الأفكار المشوهة التي تطلقها الطبقة الحاكمة لتحافظ على النظام الاجتماعي الحالي، أو النظام الاجتماعي السابق، أو هي التعبير الفكري لجماعة من الجماعات وهذا التعبير يساعد على تحقيق أهدافها وطموحاتها»⁽¹¹⁾ وهذا تأكيد على أن الأيديولوجيا أفكار الطبقة الحاكمة للمجتمع إذ وصفها بالمشوهة بمعنى أنها ليست موضوعية الطرح إنما وجهة نظر فردية للمواضيع لهدف سياسي بحث هو الرغبة في فرض منطق طبقة ما على حساب السواد الأعظم. في حين ذهب "غاييل" إلى القول بأن الإيديولوجيا: «منظومة من الأفكار المرتبطة اجتماعيًا بمجموعة اقتصادية أو سياسية أو عرقية أو غيرها، منظومة تعبر دون تبادل عن المصالح الواعية بهذا القدر أو ذاك لهذه المجموعة على شكل نزعة مضادة للتاريخ، ومقاومة للتغيير ومفككة للكليات، إنها تشكل التبلور النظري لشكل من أشكال الوعي الخاطئ»⁽¹²⁾ وهنا نلمس تأكيدًا على أنها منظومة اجتماعية تستمد أفكارها وتصوراتها من الواقع الاقتصادي أو السياسي أو العرقي الموجود في مجتمع معين شرط أن تكون المنظومة المسيطرة منظومة الطبقة العليا في المجتمع؛ بمعنى أن من يقع أعلى الهرم الاجتماعي، السياسي، العرقي، الاقتصادي يرسم خطوط هذه التصورات فتصبح بذلك الإيديولوجيا ذات وعي خاطئ أي ناقص لا يجوز قبول بقية الهرم، من هذا المنطلق تتفكك الكليات داخل المجتمع وتفرض الأفكار. في النهاية يمكن القول أن تتبع التعريفات وحصرها نظرًا لتعددتها أمر غير مجد إذا أردنا تكوين تعريف موحد وشامل للمصطلح لما يحيط به من غموض والتباس، غير أن هناك اتفاق حول عدها ظاهرة كئيّة تتعلق بالوجود الواقعي للإنسان على كافة الأصعدة: الاجتماعي، السياسي، الاقتصادي خاصة؛ فالأول تصبح فيه وظيفتها إدماجية أما الثاني فتصبح فيه إطارًا مرجعيًا للعمل السياسي أما اقتصاديًا ففكر الطبقة العليا إذن الإيديولوجيا في أبسط مفهوم فكرة منظومة لأن الفكر بلا تنظيم مجرد كلام.

بالحديث عن الإيديولوجيا والأدب لابد والإشارة إلى أن هذا الأخير أولاً وقبل كل شيء تعبير سام عن أفكار الإنسان ومعتقداته بأساليب انزياحية وجالية وفنية، وهو الأمر الذي جعل من الصعب فصله عن "الإيديولوجي" بعيدا عن الاختلافات الطارئة على المصطلح، وعليه؛ يصبح الأدب مادة مؤدجة فالكاتب يعبر عن مجتمعه، رؤيته السياسية، الثقافية وحتى الاجتماعية أو الاقتصادية في عمله الإبداعي فهو شئنا أم أبينا

يدافع عن أفكاره وقد يبرر حتى سلوكياته سواء بطريقة مباشرة أو مضمرة، إذن الإيديولوجيا والأدب بينهما علاقة ثنائية موضوعية؛ فالأولى هي اعتبارها أحد المكونات الأساسية للعمل الأدبي، وفي الوقت ذاته هي نتيجة يطمح النص الأدبي إلى ترسيخها وإبرازها فغايتها الخروج بإيديولوجية تفسر المجتمع والتاريخ بالإضافة إلى ذلك فالكاتب ليس المكون الوحيد المنتج للإيديولوجيا، بل هناك عامل ثان يلقى إيديولوجيته على ظلال الأدب؛ هو القارئ الذي يحكمها في تقييم ما يقرأ وحتى في فهمه وتأويله، بالتالي نجد أن الأسئلة: كيف أنتج؟ بواسطة من؟ ولمن أنتج؟ أضحت أسئلة ضرورية لا بد منها في تشكيل أي عمل أدبي، فالظروف الخارجية له بمعية التجربة الحياتية للكاتب وصولاً للفئة المستهدفة للعمل كلها إيديولوجيات شكلت لنا الأدب. وتعد الرواية على نحو خاص من بين الأجناس الأدبية الأكثر مقدرة على احتضان الأطروحات والأنساق الإيديولوجية المختلفة وذلك راجع لطبيعة النص الروائي الذي يتشكل أساساً من تداخل وتعلق نسقي لا بد منه، ومن ثم فهذه الخاصية الحوارية (تعددية أصواته، حواراته، نثرياته) تجعل الرواية فن يتموضع دائماً في القطب المقابل للإيديولوجيا؛ فالأنساق التي تحتويها غالباً ما تكون في حالة حوار، تفاعل، حركة وحتى صراع وتصادم. إذن الكتابة الأدبية لا يمكن أن تتجرد من الإيديولوجيا سواء كانت رواية أو أي جنس أدبي آخر وهي خاصة في العصر الحديث قد أرخت بظلالها على الأدب حتى أضحت موقع تقييم أحياناً، فمثلاً الأدب الموافق لإيديولوجية الأغلبية يصبح هو الأدب الجيد، الأدب المركز، والمعبر عن إيديولوجيات الطبقات المتدنية يحال تلقائياً إلى أدب الهامش. ومع ذلك هناك صوت خافت يقول بضرورة التمييز بين نوعين من الأدب: الأول أدب للحياة والثاني أدب هادف لترسيخ موقف سياسي، عقيدة محددة في المجتمع... من هذا المنطلق يوجد أدب كتب لذاته ومن أجل ذاته بعيداً عن الإيديولوجيا وإن كان الأمر صعباً، خاصة وأن هناك من أكد أن إقصاء البعد الإيديولوجي عن الأدب هو نفسه موقف إيديولوجي سينعكس على الأدب بشكل أو بآخر. إذن بعيداً عن البحث في احتمالية كون الأدب إيديولوجياً أو أن الأدب لا يحمل أي إيديولوجيا، علينا التركيز بدل ذلك في جهة أخرى، هي أن أنجح الأعمال الأدبية هي الأقدر على إخفاء الإيديولوجيا.

3. الصراع الأيديولوجي في رواية "حلم على الضفاف":

3.1. إيديولوجية الأرض:

تعد الأرض أساساً لأي إنسان ومبعثاً على الأمان والسكينة فأضحى حضورها في الأعمال الأدبية العربية أمراً مفروغاً منه. غير أننا لاحظنا في الأدب الجزائري على وجه التحديد اقترانا لفكرة الأرض بفكرة الاستعمار وذلك راجع أساساً للماضي الاستعماري الفرنسي في الجزائر، ففي رواية "حلم على الضفاف" نجد خروجاً عن هذا العرف السائد بأن الأرض مقترنة بالأمل والازدهار والأمن لتطغى مساحة ارتباك جديدة في مفهوم الأرض مشكلة بذلك أيديولوجية جديدة، إلى جانب السكينة التي يوحى بها المصطلح ظهر ما يناقضه

بمسحة اللا استقرار التي أصبح كذلك يدل عليها؛ وهو أمر واضح مع شغف هذه الرواية خاصة الجزائرية منها. إذ نحن نجد في أول احتكاك مع الأرض شخصية "حسان" التي هاجرت نحو فرنسا بعد أن قتلت حبيبته "أم السعد" على أيدي ضابط فرنسي ليلة زفافها، ما صور لنا الصدمة الأولى داخل هذا المتن الروائي حيث تخلت هذه الشخصية عن أرضها دون أدنى مقاومة للاستعمار في قول "حسان": «لا بد أن أرحل من هنا. من كل شيء كان يربطني بأم السعد وكل شيء يربطني بهاته الأرض»⁽¹³⁾ فالملاحظ أن "حسان" بعد موت "أم السعد" فقد الأمل في العيش على هذه الأرض مما دفعه إلى الرحيل، مع هذا اصطدم في أرض المنفى بواقع الشعور بغربة صنعها بيديه على الأراضي الفرنسية لضعف منه في قوله: «هريت من نفسي.. من أهلي.. من وطني الذي افتقدته إلى الأبد لأنني لم أفعل شيئاً لأجله ومن أجله»⁽¹⁴⁾ فالشخصية خضعت للأمر الواقع إلا أن مسحة الندم بادية عليها فالأجدر كان المقاومة واستعادة ما ضاع منه. فكانت شخصية "أم السعد" رمز للأرض المسلوقة من طرف الفرنسيين من جهة وقتل لأحلام الجزائريين من جهة أخرى. في حين كانت شخصية "حسان" مثال عن الجزائري المستسلم الذي لم يتمكن من حماية نفسه فما بالك بأرضه واختار الاغتراب.

كما تطالعنا شخصية "صاموئيل" برؤية مختلفة عن الأرض بعيداً عن فكرة الاستعمار التي غالباً ما تتوقع وفقها هذه الأخيرة بفكرة الانتماء معادلاً موضوعياً مشكلاً مفهوم الأرض في قول "أحلام" منبرة من طريقة تفكير "صاموئيل": «رغم افتقاد صاموئيل وأقرانه إلى وطن يلهمهم.. يحنون إلى تربته.. رغم ذلك التشتت الرهيب الذي جعلهم يهيمون في جميع بقاع العالم إلا أنهم استطاعوا أن يحافظوا على ذلك الانتماء لأنهم يدركون جيداً أن الانتماء هو الوطن الحقيقي»⁽¹⁵⁾ فالانتماء لهوية أو معتقد أو لغة من شأنه أن يكون رابطاً معينا يجمع جماعة ما وهو الأمر الذي حدث مع "صاموئيل"، انتمائه للمعتقد اليهودي حال دون تشتت الجماعة على عكس "حسان" الذي امتلك كل مقومات الانتماء ومع ذلك حدث التفكك. وهذا تناقض ومفارقة صارخة إذ شاهدنا حالة استقرار من جانب "صاموئيل" ولا أمان من جانب "حسان" والمفترض أن يكون العكس على اعتبار أن الأول دون أرض في حين يملك الثاني الأرض. إذن إيديولوجية الأرض هنا تحيلنا إلى الانتماء مقوماً لا بد منه هوية مشكلة لمصطلح الأرض.

في مشهد آخر نجد شخصية "نورة" التي مثلت لنا آثار الاستعمار ومصير اللاجئين العالقين بين الثقافات والقارات، نورة هي ابنة حسان التي تعيش في حالة من اللا انتماء، الشخصية بها مسحة ارتباك وضياح وانسلاخ عن الهوية؛ إذ لا تحبذ فكرة أنها جزائرية وفي المقابل لم تشعر بفرنسيتها ف راحت تبحث عن هوية جديدة ما أدى إلى احتكاكها بصاموئيل وهنا ظهر الصراع بين فكرة الانتماء واللا انتماء في قول "نورة": «حدة الصراع العرقي بيني وبينه ازدادت توسعا وتمزقا ليغرق داخل الأوجال ذلك النتوء القوي.. ذلك الهجين بين الجزائر ونور مندي وصاموئيل..»⁽¹⁶⁾ لتفصح في نهاية الرواية الخطأ الذي كانوا فيه؛ بداية من والدها، حين

قالت: «لم يبق من مضخة الدّم غيرنا نبحت عن وجودنا. عن اتئامنا داخل عمة جردت كيانا فأضحينا غرباء فوق أرض الغرباء»⁽¹⁷⁾ أيقنت أنها كانت غريبة فوق أرض غريبة لكنها كذلك فقدت الأرض التي كان عليها أن تنتمي إليها وتمسك بها. وهنا عدنا إلى فكرة الأرض مصطلحًا واسع المفهوم وأن الالتئام محمًا كان نوعه هو المشكل لإيديولوجية الأرض إذن قد شكلت هاجسا لدى الشخصيات الجزائرية وأملا حسب نظرة صامويل وهو الأمر الذي جعل هذا الأخير أكثر تفاؤلاً من بقية الشخصيات لتنتهي الرواية حسب ما يتقن بمغادرته إلى الحلم الذي بناه وهو العيش في تل أبيب في حين بقيت الشخصيات الأخرى تعض أصابع الندم وتمني النفس بزيارة وطنها الجزائر ذات يوم.

3. 2. إيديولوجية الرفض:

شكل الرفض بمختلف أنواعه ومفاهيمه أيديولوجيا قامت عليها الرواية من بدايتها إلى نهايتها، جل الشخص ذو مسحة تشاؤم ورفض للواقع بكل حيثياته. البداية كانت برفض الاستعمار؛ الشخصيات الرئيسية رفضت الوجود الفرنسي في الجزائر واللافت للنظر أن الراضين هنا من ثقافتين مختلفتين؛ جزائريون لم يقبلوا التواجد الاستعماري الفرنسي على شاكلة "حسان" الذي انتهى به المطاف على الأراضي النورماندية بعد أن تيقن بصعوبة العيش في ظل تلك الظروف (فقدان حبيبته في ليلة زفافها) بعد أن رفض كل أشكال التعامل مع الفرنسي في سنوات الاحتلال، وقد ترجم رفضه بالسفر نحو مدينة نورمندي وإن كان هذا تناقضا فالأجدر هو الدفاع عن وطنه وأراضيه وعائلته بالتالي فالرفض هنا أقي سلبيا، غير أن حسان لم يدرك ذلك إلا بعد السنوات التي قضاها مغتربا، كما نلاحظ رفضا ضمينا هو اختياره العيش في نورمندي القريبة من فرنسا بدل فرنسا نفسها وكأنه يؤكد موقفه غير الراغب في التعامل مع الفرنسيين وثقافتهم باعترافه حين قال: «لم أكن أريد العيش في فرنسا التي ستذكرني حتما شوارعها بياضها وجرمته الشنعاء.. اخترت نورمندي»⁽¹⁸⁾ الضعف من جهة، والقنوط من جهة أخرى، كان السبب الرئيس الذي حرك قرارات "حسان" والجامع بينهما هو الاستعمار وما خلفه من نتائج. لتنتهي حكايته مع الرفض، بتعرضه للرفض من أبناء جلدته، فأضحى غريبا على أرضه بعدما عانى الغربة على أرض الغرباء وذلك واضح في قوله: «بقيت في البلدة مدة طويلة.. أحاول أن أجد نفسي مكانا في حضنها فلم ألق من نظرات أهل القرية غير نظرات الإذلال والاحتقار.. كنت بالنسبة إليهم حركيا خائئا ... باع الوطن.. الشرف.. ليعيش بالقرب من العدو..»⁽¹⁹⁾ إذ عاد المنفي إلى أرضه بعد استقلال الجزائر ليقابل باللا قبول من أبناء قريته، أضحى في نظرهم خائئا لا يستحق العيش على هذه الأرض. إذن إيديولوجية الرفض لهذه الشخصية جاءت مزدوجة رفضه للواقع أولا ثم رفض الواقع له فيما بعد.

من نافذة مغامرة برزت فكرة الفرنسي الراض للاحتلال الفرنسي للجزائر، صحيح أن فرنسا دخلت الجزائر بتأييد فرنسي وأوروبي واسع إلا أن هناك شريحة من المجتمع الفرنسي نفسه وقفت ضد هذا القرار

واعترفت بالظلم الذي تعرض له الجزائريون، وشخصية "ماري" تمثل لهذه الفئة، قدمتها الكاتبة للتأكيد على ضعف الحجج الفرنسية لاحتلال الجزائر والوحشية التي قوبل بها أصحاب الحق عند مطالبتهم بحقوقهم ومحاولة إسكاتهم، مثل هذه الأصوات ظهرت لتؤكد انتصار القضية الجزائرية من الناحية الدبلوماسية لأنها استحوطت قضية رأي عالمي. "ماري" فرنسية بأحلام باريسية لاحظت الفرق بين دعوات الحرية وحقوق الإنسان التي كان بلدها يتباهى بها والواقع المعيش في الجزائر، هذا التناقض دفعها إلى الانقلاب على أبناء جلدتها وأشعل الرغبة في الابتعاد عن مثل هكذا بيئة لتختار مدينة "نورماندي" وهو ما عبر عنه حسان: «كأنت ضد لغة الحمجية.. التعسف.. ضد الاحتلال.. ضد الاستعمار تقول: ولد الإنسان حراً ليقى حراً...»⁽²⁰⁾ إيديولوجية الرفض عند ماري كانت عن طريق بناء علاقة ودية مع حسان وكأنها تعلن عن قناعاتها وتجبره ألا علاقة لها بهذا البلد بعد الآن فهي لم تحاول محو نظراته السلبية عن فرنسا وسكانها إنما اكتفت بإظهار نقيتها على المحتلين. وعليه ماري الفرنسية الأصل اختارت العيش في مدينة نورمندي رفضاً لفرنسا فشككت لنا بذلك إيديولوجية رفض ثانوية مندرجة ضمن الرفض الأكبر، رفض الاستعمار.

ثانياً: رفض الهوية والانتماء، إذ يستمر الرفض مرة أخرى في تشكيل رواية "حلم على الضفاف" ومنحها أبعاد أخرى بتسليط الضوء على قضية اللاجئين أو المغترب الجزائري بالتركيز على بنات حسان (نورة، فريدة، ليلي) اللاتي تعتبرن نتاج ثقافتين متضادتين على أرض غريبة إلى حد ما؛ فالبنات رفضن الانتماء إلى الجهتين (الأم، الأب) فظهرت عليهن مسحة الشتات، ولم تتمكن ولا واحدة منهن الانتماء إلى أحد الطرفين أو صنع هوية خاصة بها، فمشن على ضفاف المدينة وذلك بارز في قول حسان: «كبرت فتياقي بعيداً عن الأصل.. انغمسن داخل حياة النورمنديين فأضحين يحمين على هامشها.. يتجاهلن الواقع.. ينسلخن عني وينسلخن عن ماري»⁽²¹⁾ إذن نتاج الاستعمار كان تشتت الجزائريين في مختلف بقاع العالم دون هوية خاصة مع احتكاكهم بثقافة البلد المضيف، إذ لم يتمكنوا من الحفاظ على هوياتهم لأنهم شعروا بالانتماء إلى البلد الأم، وهو واضح أكثر عند الجيل الجديد الذي ولد ونشأ في غير الجزائر، خاصة أن هذه الفئة تعد نفسها جزء من الثقافة الغريبة على شاكلة بنات حسان هنا، لتعرفن مع مرور الوقت أنهن لسن جزء من نورمندي فكانت الصدمة التي أحدثت صراخاً داخلها انسلخن فيه من كل الهويات لخلق هوية خاصة بهن لتخفن في ذلك، إذن لسن جزائريات ولا نورمنديات بل مجرد شتات انتمائي. لتنتهي الرواية بكشف هذه الحقيقة المرة وعودة البنات إلى أصلهن لتيقن بأن الهوية جزء من المرء ولا يجوز الانسلاخ عنها بل الاحتفاظ بها، فقالت نورة: «أعدك أحلام أنني سأزور بلدي في القريب العاجل فأنا بحاجة إليها وبحاجة إلى جميع الأهل هنالك مما تفرقت ترانيم ناياتهم التي يعزفونها فوقها»⁽²²⁾ وهنا نلمس مسحة خوف؛ فالكاتبة تعي المشكلة المتجذرة في المجتمع الجزائري من رفض لمثل هكذا أشكال نورة حسبيهم خائنة ابن خائن لم يساهم في حرب التحرير وهذا سيعصب حتماً من

قبولها، ومع ذلك لازالت هناك دعوة إلى ضرورة التمسك بالهوية فلا يمكن لأي شخصية التطور إذا انسلخت عن هويتها. فعلاً شكلت أيديولوجية الرفض محور الرواية كلا فجل الشخصيات إما رافضة لواقعها أو مرفوضة من واقعها هذا ما خلق نوع من الشتات اتسمت به أغلب الشخصيات خاصة الجزائرية منها.

3.3. إيديولوجية المجتمع:

حكمت مجتمع الرواية إيديولوجيات عدة، فالفضاء الذي دارت فيه الأحداث اتسم بصراع فكري معتقدي منبثق أساساً من الصراع الدائر بين الشرق والغرب كاشفاً عن التناقضات الموجودة بين العالمين، إذ من الطبيعي أن يكون هناك اختلاف بينها غير أن الكاتبة ركزت على عدم الاتفاق الموجود، بل وتعدته إلى الصدام الحضاري المسيطر ومنه استحالة تكوين علاقات ودية سلمية بين العالمين بعيداً عن الأشخاص أفراداً، فكانت أبرز النقاط التي ناقشتها ما يلي:

3.3.1. السلطة الذكورية على المجتمع:

البداية بقرية واد غير في مدينة بجاية، هذه القرية التي مثلت لنا صميم المجتمع الجزائري وطريقة تفكير أفرادها بعرض السلطة الأبوية أو الذكورية المسيطرة فالشخصيات تعود في كل قراراتها إلى الجد الأكبر في العائلة ولا وجود لكلمة تعلو فوق كلامه، ولنا مثال في طريقة الزواج بقول حسان: «منذ أن خرجت أم السعد إلى الدنيا .. واستقبلتها النسوة بالزغاريد .. عمت الفرحة البيت الكبير و قبل أن تتجرع أول قطرة من ثدي والدتها قبل أن تفتح عينها المغمضتين .. قرأت فاتحة الكتاب علينا كنت صغيراً جداً لم يتجاوز عمري حينها ست سنوات»⁽²³⁾ وهذا يكشف لنا الذهنية السائدة في المجتمع الجزائري، في مقابله نموذج من نفس الحالة في الثقافة النورمندية على لسان أحلام: «أما ليلى.. اختارت طريقاً آخر أو بالأحرى حياة أخرى.. فضلت أن تعيش لوحدها.. مع إنسان أحبها وأحبته.. تعاشره معاشرة أجنبية.. لها شخصيتها المنفردة التي حققها لها القانون الفرنسي.. في حين لا يزال عمي حسان ذلك الرجل الضعيف في جسده وفي روحه»⁽²⁴⁾ هي ذي الذهنية الفرنسية المختلفة تماماً عن العقلية العربية، إذ نلاحظ عدم الاعتراف بالنظام الأبوي لأن القانون الفرنسي يحمي حق الفرد في التحكم بقراراته سواء كان فتاة أم ولد بمجرد بلوغه العام الثامن عشر، وهو الأمر الذي رفضته "أحلام" وعدته مبالغاً فيه، إلا أن النزعة الفرنسية غيرت حسان فأصبح معتاداً على العيش دون الحقوق التي كانت في الأمس القريب جزء لا يتجزأ من تكوينه رجلاً على الأراضي الجزائرية. ونلاحظ كذلك مفهوم الحرية المختلف كثيراً فحسان قدم أحلام على أنها الفتاة الحرة في حين ساورها الشك من هذا المصطلح قائلة: «...قدمني إلى بناته وهو ينعني بالحرية ترى ماذا كان يقصد من ورائها؟ كنت أعتقد أن نورمندي هي بلد الحريات كنت أظن أن بناته هن اللواتي يمارسن طقوس الحريات بينما أنا فقد جئت من بلد كلاسيكي...»

فريقي جدّ محدودة ومضبوطة لولا تسريح من الوالد كيف كنت سأخطئ الحدود»⁽²⁵⁾ وهذا يوضح لنا أنه حتى بعد الاستقلال ظلت النظرة نفسها فالأب هو المتحكم الأول في قرارات العائلة.

3. 2. حرية المرأة:

وهو أحد أبرز القضايا التي سلطت الكاتبة الضوء عليها وقد خرجت بنتيجة توضح الفرق الشاسع بين المرأة الجزائرية والمرأة النورمندية بداية بأبسط الحقوق، التعليم إذ حرمت المرأة الجزائرية من التعليم وذلك في قول حسان: «..نسيت أنها لم تدخل الكتاب..لم تتلق هاته الحروف التي نحتها من أجلها..نسيت أنها فتاة لا يحق لها أن تفقه هاته النقوش..شيء ما يدفعني للحد على هاته العشرة..اغتاوا منا الأحلام تحت عاداتهم وتقاليدهم..»⁽²⁶⁾ صحيح أن الكلام هنا حدث في عهد الاستعمار الذي حرم كافة الأطياف من حق التعليم غير أن وطأة القرار على المرأة كان أشد فحتى الكتاب الموجود في كل قرية حرمت من دخوله لأنها كانت بالنسبة لهم مجرد آلة إنجاب، وهما الأكبر الاهتمام بزوجها وتربية أبنائها، في المقابل الفتاة في فرنسا ولجت الجامعة التي تعد حاضنة العلم والأفكار والأيديولوجيات بالتالي ارتقت إلى مراتب أعلى وهو واضح في الحوار الذي دار بين أحلام ونورة حول الدراسة بالجامعة فقالت: «درست عاما لغة عربية ثم غيرت وجهتي نحو الحقوق وأحب مطالعة الفلسفة والتعمق في التفكير الإنساني»⁽²⁷⁾ وهذا ينقل المرأة إلى مستوى آخر، انتقلت من مجرد معرفة الحروف إلى مناقشة أفكار فلسفية والتعمق فيها، إلى الحرية في اتخاذ القرارات التي تميزت بها بنات حسان اللاتي اعتبرن أنفسهن جزء من المجتمع النورمندي فكل واحدة منهن كان لها عالم خاص وحياة خاصة تحياها على عكس أحلام التي لم تتمكن من الانسلاخ عن عادات كبتها حتى وهي على أراضي فرنسية بعيدة كل البعد عن والدها لأنها تجرعت من كأس التقاليد ما يكفيها وهذا شكل الصدمة عندها، فلم تع طريقة تفكير هذا البلد في قولها: «شوق وحنين يدعواني لأسامر القمر علي أفوز بمقابلة بنات عمي الثلاث اللواتي لم يعدن إلى البيت.. الوقت يمضي... والساعة تحضن ناقوسها في دفء عند الثانية عشر..الليل أغمض جفونه على نورمندي... أما عمي حسان وزوجته ماري فيطوقها الليل الحالك تحت مخمل واحد... لا أحد منها يسأل عن بناته التائهات...ولا أحد منها تدغدغه نوبات القلق والتشنج عكسي تمامًا»⁽²⁸⁾ جاءت هذه الكلمات للتأكيد على حالة التخبط التي عاشتها بمجرد وصولها إلى نورمندي. واللافت للنظر أن الكاتبة طرحت موضوع المرأة مبرزة في الوقت نفسه السليبيات التي تنطوي عليها القضية بين العالمين محاولة تقريب وجهات النظر بخلق احتكاك ومد جسور تواصل بين المراتين الجزائرية والفرنسية في هيئة أحلام وبنات حسان.

كانت هذه أبرز أوجه الاختلاف الموجودة بين العالمين، التي شكلت لنا جوهر الصراع الأيديولوجي في الرواية؛ الذي ارتقى ليصبح صراعا حضاريا بالدرجة الأولى بعرض طريقة عيش العالمين في ظل الحدث التاريخي الذي جمعها بفرنسا واصلت صنع الحضارة وافتخارها بذلك في حين ظلت الجزائر تتخبط في

غياهب نتائج استعمار ولى لم يزددها سوى انغلاقاً اجتماعياً ولنا دليل في حدوث الصدمة فور وصول أحلام إلى فرنسا وانبهارها بكل شيء في قولها: «باريز الحلم الذي كنت أتضرع لنجبه.. الأمل المتألق في سبائي العاتمة... عالم آخر يمتطي بطرقاته الواسعة.. المتضافرة.. العريضة وشوارعه المتألفة تحت سائها.. سائمشال.. بارباز.. مونبرناس.. المبنى العتيق لآرك دوترفيل والتوريفال كل هذه التحف كانت حلما يعرج سائي»⁽²⁹⁾. هذا يبين مدى الانبهار الذي كانت فيه والرغبة الملحة التي تطوقها وتدفعها لعيش هذه الحياة لدرجة رغبها في التاهي وهذا الجو فراحت تقلد طريقة لبس الفرنسيات باعترافها: «لبست سروال الجينز والقميص الأبيض.. فككت ضفائري.. سرحت شعري.. رفعتني إلى الأعلى.. ملمتني ببروش باريزي حتى لا يضايقني أضحيت أشباه الفتاة النورمندية هكذا علي أختني وراء هذا الزي»⁽³⁰⁾ لكن وبعد أيام قضتها في هذا الحلم زال الانبهار وتيقنت أنه كان كابوساً فأضحت تنظر للأمور نظرة أعمق بعيداً عن السطحيات التي كانت تشغلها، فالصدمة اختفت والصراع اندثر وبلغ نهايته بتفوق الاتهام فلم تعد المعالم والحضارة تعني شيئاً في مقابل الغربة التي عاشتها لأيام، أصبحت هذه الرحلة تجربة علمتها حب الذات والثقة في النفس فاختلفت الأيديولوجيا.

3. 4. أيديولوجيا الدين:

غالباً ما يتقاطع مصطلحاً "الأيديولوجيا" و"الدين" لأن كثيراً من الدارسين يضعانها في نفس الخط بحجة أن الدين أيديولوجيا؛ أي إن الدين جزء لا يتجزأ منها لكن الحقيقة غير ذلك فمصطلح "الدين" يشير إلى عقيدة أو شريعة روحية يتبعها الفرد، ولكل ديانة قوانينها التي تضبطها؛ فالدين هنا يعلو عن الأيديولوجيا ويصبح في مرتبة عليا منها. بالتالي متى ترتبط الأيديولوجيا بالدين؟ هي حالة واحدة فطريقة تفسير أو رؤية الفرد الواحد لديانة معينة تعد أيديولوجيا؛ بمعنى أن الدين الواحد قوانينه ثابتة وواحدة لدى الجميع لكن نظرة كل إنسان إليه والكيفية التي يشرح بها نواميسه هي التي تختلف فتتشكل بذلك أيديولوجية دينية.

ونحن هنا في رواية "حلم على الضفاف" نلاحظ أن الكاتبة قد بثت رؤيتها للصراع الديني الموجود في العالم بواسطة شخوص الرواية؛ لكل شخصية معتقد من جهة ونظرة للديانة المخالفة لها من جهة أخرى. فنلاحظ بروز ثلاث أديان رئيسة شكلت لنا الصراع داخل المتن الروائي: الإسلام، المسيحية، واليهودية. الإسلام مثلته شخصية: أحلام، في حين المسيحية تمثلت في شخصية ماري أما اليهودية عن طريق شخصية "صامويل" كما تبرز لنا "اللاديانة" بواسطة شخصية "نورة". الصراع الديني كان واضحاً في مدينة "نورمندي" مدينة احتضنت أيديولوجيات دينية عدة تتشابه مع بعضها البعض لتشكّل واقع دينياً يتميز باللا استقرار. أحلام الإسلامية المعتقد اصطدمت بجدار ديني خلخل إيمانها إلى حد ما لتختار في نهاية المطاف الهروب خوفاً على إيمانها، لأن صورة المسلم هنا اقترنت بإسلام الوراثة؛ الكاتبة صورت لنا هزات نفسية تلاحق المسلم الذي يعتقد أنه سيدخل الجنة فقط لكونه مسلماً، وما دون ذلك من أديان غير صالحة دون أسباب منطقية إنما فقط كلام

متوارث. وهو واضح حينما قالت أحلام عن إحدى ساكنات مدينة نورمندي التقتها في قطار بمجرد وصولها إلى فرنسا بنوع من الشفقة والتعالي وتلك الثقة بأن الإسلام أفضل الأديان: «كنت أتمنى أن تشاركني العقيدة وتلتزم ديانتنا... فإرام لهذا الجمال أن تبطله جهنم...»⁽³¹⁾ وهنا نلاحظ سذاجة المعتقد الإسلامي من وجهة نظر أحلام، هي مسلم سطحي لا يفقه من الإسلام شيئاً سوى لفظي الجنة والنار.

لنتنقل إلى أحلام في مواجهة اللاديانة عن طريق شخصية "نورة" وهنا جابهت أحلام نوعين من الصدام، صدام مع الآخر وصدام مع الأنأ؛ فالنبي محمد (عليه الصلاة والسلام) يعد الواجهة الأولى للديانة الإسلامية وبذلك أي قذف فيه؛ هو قذف في الديانة كلا، وقد كان بارزاً لنا كره "نورة" الشديد لهذه الشخصية الإسلامية التي رأت فيها عدم تطبيق للمبادئ التي سطرها لغيره عن طريق قراءتها لسيرته حسب ما وجهها "صامويل" نحوه. أما الصدام النفسي مع الأنأ فكان من عجز "أحلام" عن الدفاع عن نبيا الكريم، وهنا تكشف لها عدم فقهها في الإسلام شيئاً وأن كل ما تعلمه كان مجرد أقوال متوارثة عن أجدادها وهو ما أثر فيها بقولها: «كلانا اخترقه الصمت.. صمتها كان خلاصة عدم الاقتناع أما صمتي أنا فكان هروباً من ذلك الضعف الذي يخرسني عن الدفاع عن شخصية عبقرية فذة كتب التاريخ عنها كل تلك القرون»⁽³²⁾ وهذه كانت الصدمة التي نقلت الصراع الديني من صراع إسلامي مسيحي، إسلامي يهودي، مسيحي يهودي إلى صراع إسلامي إسلامي؛ بين ما كائن وما يجب أن يكون لتظهر الرغبة في الانتقال من مسلم بالوراثة إلى مسلم عن قناعة. وبذلك ظهور أيديولوجيا دينية قائمة على التدبر والتفكير.

وهناك أيضاً صراع بين اللاديانة والمسيحية بقذف نورة في شخصية القديسة مريم في المعتقد المسيحي في قولها: «أرأيت يا أحلام ذلك التمثال الذي بالقرب من الصليب يزعم المسيحيون أنه لامرأة فاضلة أرادت أن تمنح روحها لربها بعد محن عديدة ألمت بها... أصبحت قديسة تلمم أسقام البشرية الضعيفة...»⁽³³⁾ فمصطلح "يزعم" هنا يحمل دلالة اللاتصديق خاصة وأن نورة متأثرة إلى حد بعيد بالديانة اليهودية وفق رؤية "صامويل" وهو الأمر الذي جعلها كثيرة القذف في الديانات الأخرى كما لو أنها تكرس المعتقد اليهودي السائد بأن اليهود هم أحباب الله. لنجد في نهاية الرواية بأن أحلام قد وجدت ضالتها الدينية فمن معرفة سطحية، إلى تشكيك في الإيمان، وصلت أخيراً إلى الثبات المعتقد بعد ما واجهت حقيقة جهلها بدينها وأنها يجب أن تتعلم وتتفقه فيه أكثر، وذلك بدا واضحاً في ارتياحها التام عند دخولها الكنيسة المسيحية ومراقبتها لصلوات المسيحيين دون خوف على ديانتها كما كانت من قبل، أحلام أضحت تشعر بالسكينة داخل ذلك الصرح الديني المسيحي، كما لو أنها تتدبر وتقارن الأديان هناك، خاصة وأنها استخدمت مصطلح "الهروب" فالجلوس داخل الكنيسة أصبح أفضل من التمشي في شوارع "نورمندي". وفي مشهد جانبي نلاحظ نوعاً من الرغبة في التماهي الديني والبحث عن ديانة إنسانية بعيدة عن الاختلاف الحاصل والافتتال الدائر بين الأديان الثلاث وذلك بارز في

تصوير طريقة زواج "حسان" و"ماري" في قول والد أحلام: «تزوج أخي حسان وماري على طريقة مخالفة للطقوس المسيحية ومخالفة أيضا لكل الطقوس التي رماها حسان وراء برنسه الأبيض وعمامته البيضاء»³⁴ إذن هناك رغبة من طرف الكاتبة في تناسي النواميس الدينية التي تحكم الفرد من أجل خلق عالم هادئ تحكمه ديانة إنسانية تنبذ التفرقة.

والجدير بالذكر أن هذه الأمنية وردت منذ فاتحة الرواية، فجاءت كما لو أنها الحلم الأول على هذه الضفاف الذي تطمح الكاتبة إلى تحقيقه رغم صعوبته. خاصة وأن كلا من حسان وماري قد تمكنا من بناء منزل يجمعها فوق ضفة نورمندي واستمر على هذه الحالة حتى نهاية الرواية؛ كأنها تقول بأن التعايش السلمي بين الديانتين الإسلامية والمسيحية أمر وارد، وقد غذت هذا التوجه بالبحث عن نقاط التشابه بينها التي جسدها قصة القديسة مريم وقصة خضرة المبروكة (امرأة عمدت النسوة إلى زيارتها للتبرك) فكلتاها أضحت إنسانة مقدسة تلم أسقام البشر.

في جانب آخر هناك عدم استقرار بين الإسلام واليهودية تمثل في شخصية نورة (من اللاديانة إلى الانتماء الإسلامي) وشخصية صامويل الذي انتهى زواجهما بطريقة مأساوية هي اختطاف صامويل لابنته وهروبه بها نحو تل أبيب مخلقا ألما كبيرا لنورة. وهي إيديولوجية عربية جزائرية واضحة من رفض للوجود اليهودي واستحالة التعايش السلمي معه بسبب أنانيته أولا، إذن فالحلم الأسى فوق هذه الضفاف هو حلم التعايش الديني بعيدا عن الصراعات والصدمات التي تفرضها الاختلافات التي صنعت من طرف البشر.

4. خاتمة:

من خلال هذه الدراسة نخلص إلى أن النسق الأيديولوجي قد سيطر على البناء السردي المكون للرواية؛ لكونها تحمل بين ثناياها محاولة فكرية ضخمة دينية سياسية، حتى اجتماعية وثقافية ليشكل بذلك الصراع بين الشرق والغرب جوهر هذا العمل الأدبي حتى أضحي في نهاية المطاف صراعا حضاريا بين حضارتين متناقضتين، تبنت فيه الكاتبة مبدأ الحوارية والانفتاح بمد جسور التواصل مع الآخر الغربي أحيانا وفرض القطيعة التامة في أحيان أخرى، وبذلك كان الرفض الأيديولوجيا الأكثر بروزا في هذا النص الروائي بداية برفض الآخر وصولا إلى الانسلاخ عن الهوية في نهاية المطاف برفض الأنا للأنا. ويمكن تفصيل نتائج الورقة البحثية كالآتي:

- الصراع الحضاري : تجسد الرواية صراعا حضاريا عميقا بين الحضارتين الشرقية والغربية، مما يجعل هذا الصراع جوهر العمل الأدبي لاسيما وأنه يعكس التوترات التاريخية والثقافية المعقدة.
- مبدأ الحوار والانفتاح : اعتمدت الكاتبة أسلوب الحوارية والانفتاح، مما يتيح الفرصة للتفاعل بين الثقافات، رغم وجود حالات من القطيعة التي تعكس صعوبة التواصل.

- الرفض الأيديولوجي: برز الرفض الأيديولوجي عنصرا محوريا، حيث يتجلى في رفض الشخصيات للآخر، ويتطور ليشمل انقسام الهوية بين الأنا والآخر، مما يعكس الصراع الداخلي للأفراد.
- تأثير الهوية: يشير التحليل إلى أن الرواية تعكس كيف يمكن أن يؤدي الرفض الأيديولوجي إلى الانسلاخ عن الهوية، مما يثير تساؤلات حول مفهوم الهوية في ظل التغيرات الثقافية.
- الانتماء معادلا موضوعيا لفكرة الأرض التي أضحت هاجسا رافق الشخصيات الجزائرية على وجه التحديد.

بناء على ما تم التوصل إليه من نتائج يمكن أن نقوم بوضع الحلول الآتية:

1. تحليل الأنساق الأيديولوجية في الأدب الجزائري: من خلال دراسة كيفية تجسد الأيديولوجيات المختلفة في الروايات الجزائرية، والتركيز على تأثير التاريخ والاستعمار الفرنسي في تشكيل هذه الأنساق.
2. النقد الثقافي كتقنية تحليلية: اعتماد النقد الثقافي كمنهج لتحليل النصوص الأدبية، مع التركيز على كيفية تفاعل الأيديولوجيات المختلفة داخل الرواية وتأثيرها على الشخصيات والسرد.
3. الكتابة النسوية وأيديولوجيا الهوية: دراسة دور الكتابة النسوية في الأدب الجزائري، وكيف تعكس الأيديولوجيات المرتبطة بالهوية والحرية.
4. الصراع الأيديولوجي محركا للنص: تحليل الصراعات الأيديولوجية داخل الرواية وكيف تؤثر على تطور الشخصيات والحبكة، مع مقارنات بين الشخصيات ومواقفهم المختلفة.
5. التفاعل مع الثقافات الأخرى: بحث كيفية تأثير الثقافة الفرنسية على الأدب الجزائري وتطور الأيديولوجيات فيه، وكيفية تفاعل الشخصيات مع هذه الثقافات.
6. مقارنة بين الرواية الكلاسيكية والحديثة: دراسة الفرق بين الأنساق الأيديولوجية في الكتابة الكلاسيكية والحديثة، وكيف يمكن للكتابة الروائية الجديدة تجاوز القيود المفروضة في السابق.
7. الأساليب السردية وتأثيرها على الأيديولوجيا: تحليل الأساليب السردية المستخدمة في الرواية وكيفية تفاعلها مع الأيديولوجيا المعبر عنها في النص. ومن ثم تجاوزها نحو ما ارتبط بها وراء السرد.

هوامش:

(1) - المنجد في اللغة والأدب والعلوم، (ط18)، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ص 806
(2) - كيزول إديث، 1993، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، (ط1)، الكويت، دار سعاد الصباح، ص 411

- (3) سايفي خالد، (2020)، صراع الأنساق في الخطاب الروائي الجزائري قراءة في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلج، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م12، ع1، ص1094
- (4) علوش سعيد، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (ط1)، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ص211.
- (5) ينظر، جميل حمداوي، 2016، الأنساق الأدبية والثقافية بين الثبات والتحول، (ط1)، المغرب، دار الريف للنشر الإلكتروني، ص53-58
- (6) ينظر، ماركوفيتش ميشيل، 1976، العلم والإيديولوجية، تر: أحمد السطاتي، منشورات أقلام، ص23
- (7) العروي عبد الله، 2012، مفهوم الإيديولوجيا، (ط8)، المغرب، المركز الثقافي العربي، ص11
- (8) لمحمداني حميد، 1990، النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، (ط1)، المغرب، المركز الثقافي العربي، ص14.
- (9) لمحمداني حميد، المرجع نفسه، ص14-20.
- (10) النادي محمد فتحي، (2020)، الأيديولوجيا-قراءة تأسيسية في البنية المفاهيمية، مجلة دراسات سياسية، ص3.
- (11) المرجع نفسه، ص3.
- (12) المرجع نفسه، ص3.
- (13) موساوي حسنية، 2013، حلم على الضفاف، (ط2)، الجزائر، دار الروائع للنشر، ص53
- (14) المصدر نفسه، ص53
- (15) المصدر نفسه، ص105
- (16) المصدر نفسه، ص125
- (17) المصدر نفسه، ص127
- (18) المصدر نفسه، ص56
- (19) المصدر نفسه، ص75
- (20) المصدر نفسه، ص59
- (21) المصدر نفسه، ص78
- (22) المصدر نفسه، ص128
- (23) المصدر نفسه، ص38
- (24) المصدر نفسه، ص103-104
- (25) المصدر نفسه، ص29-30
- (26) المصدر نفسه، ص42
- (27) المصدر نفسه، ص82
- (28) المصدر نفسه، ص27-28
- (29) المصدر نفسه، ص9
- (30) المصدر نفسه، ص29

(31) المصدر نفسه، ص 16

(32) المصدر نفسه، ص 98

(33) المصدر نفسه، ص 84-83

(34) المصدر نفسه، ص 14

قائمة المراجع:

المصادر:

1- موساوي حسية، 2013، حلم على الضفاف، (ط2)، الجزائر، دار الروائع للنشر.

المعاجم:

2- المنجد في اللغة والأدب والعلوم، (ط18)، بيروت، المطبعة الكاثوليكية.

المراجع:

3- جميل حمداوي، 2016، الأنساق الأدبية والثقافية بين الثبات والتحول، (ط1)، المغرب، دار الريف للنشر الإلكتروني.

4- العروي عبد الله، 2012، مفهوم الإيديولوجيا، (ط8)، المغرب، المركز الثقافي العربي.

5- علوش سعيد، 1985، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، (ط1)، بيروت، دار الكتاب اللبناني.

6- كرزول إيديث، 1993، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، (ط1)، الكويت، دار سعاد الصباح.

7- لميداني حميد، 1990، النقد الروائي والإيديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، (ط1)،

المغرب، المركز الثقافي العربي.

8- ماركوفيتش ميشيل، 1976، العلم والإيديولوجية، تر: أحمد السطاتي، منشورات أقلام.

المقالات:

9- سايفي خالد، (2020)، صراع الأنساق في الخطاب الروائي الجزائري قراءة في رواية كراف الخطايا لعبد الله عيسى لحيلج، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م12، ع1.

10- النادي محمد فتحي، (2020)، الأيديولوجيا-قراءة تأسيسية في البنية المفاهيمية، مجلة دراسات سياسية.